

الإيمان

عناصر الموضوع

٣٠٤	مفهوم الإيمان
٣٠٥	الإيمان في الاستعمال القرآني
٣٠٦	الألفاظ ذات الصلة
٣٠٧	اقتران الإيمان بالعمل الصالح
٣٠٨	المؤمن من أسماء الله تعالى
٣٠٩	أركان الإيمان في القرآن
٣٤٤	زيادة الإيمان ونقصانه وقلته
٣٤٦	أثر الإيمان في النفوس
٣٤٧	ثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة

مفهوم الإيمان

أولاً: المعنى اللغوي:

الإيمان مصدر الفعل الرباعي آمن وأصله أأمن، وأعلت الهمزة الثانية بالقلب ألفاً؛ لكونها ساكنة والتي قبلها متحركة بالفتح، وهو أصل يدل على معنيين:
الأول: إعطاء الأمن والأمان والطمأنينة؛ الذي هو ضد الخوف، وآمنته ضد أخفته.
الثاني: التصديق الذي هو ضد التكذيب.

وإذا قال العبد: آمنت بالله تعالى رباً، أي: صدقت به، واطمأنتت لأمره.
فالإيمان في اللغة يراد به معنيان، يظهر معناهما بحسب السياق وهما: الأمن وضده الخوف، والتصديق وضده التكذيب، والمعنيان متداخلان^(١).
ويرى ابن تيمية أن الإيمان بمعنى الإقرار؛ فيقول: ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الإيمان: «التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أخبر الله ورسوله عنه في القرآن والسنة، وأمر بالإيمان به، والانقياد له ظاهراً وباطناً»^(٣).
فهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية^(٤)، «ويشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله»^(٥).

وهو تصديق القلب واعتقاده، المتضمن لأعمال القلوب، وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله؛ ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح^(٦).

- (١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٧١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٥١٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢١، المفردات، الأصفهاني، ص ٩٠.
- (٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٩١، الإيمان، حقيقته، خوارمه، نواقضه، عند أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد، ص ١٩، ٢١.
- (٣) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص ٤١.
- (٤) انظر: العقيدة الواسطية، ابن تيمية ص ١٦١.
- (٥) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، السعدي، ص ٤١.
- (٦) انظر: الإيمان، ابن تيمية، ص ١٣٧.

الإيمان في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أمن) في القرآن الكريم (٨٧٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨١١) مرة^(١).

والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤٢	﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]
الفعل المضارع	١٧٥	﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]
فعل الأمر	١٩	﴿وَيْلَكَ ءَايَنَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [الأحقاف: ١٧]
المصدر	٤٥	﴿أَوَلَيْكَ كِتَابٌ فِي قُلُوبِهِمْ ءَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]
اسم فاعل	٢٣٠	﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]

وجاء الإيمان في الاستعمال القرآني على وجهين^(٢):

الأول: التصديق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

الثاني: الإسلام والتوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨١، ٩٣.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٩١، الوجوه والنظائر، الدماغاني ص ١١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد^(١).

الإسلام اصطلاحًا:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله^(٢).

الصلة بين الإيمان والإسلام:

لم يفرق أهل العلم بين الإيمان والإسلام حال افتراقهما، وإنما كان التفريق بينهما حال اقترانهما، فقالوا: إذا افرقا اتفقا، وإذا اقترنا اختلفا، فقالوا: إن الإسلام هو القيام بشرائع الإسلام الظاهرة، والإيمان هو التصديق الجازم بالغيبي، وهذا كما جاء في حديث جبريل، حيث فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ومن هذه الحيثية نجد أن الإسلام أعم من الإيمان، وحقيقة الأمر: أن العبد لا يكون مسلمًا إلا إن كان مؤمنًا، ولا يكون مؤمنًا إلا إن كان مسلمًا.

٢ الإحسان:

الإحسان لغة:

الإحسان من أحسن يحسن إحسانًا، وهو ضد الإساءة^(٣).

الإحسان اصطلاحًا:

هو إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه^(٤).

الصلة بين الإيمان والإحسان:

الإحسان أعلى درجات الدين، وإذا انفرد الإيمان دخل فيه الإسلام، وإذا انفرد الإحسان دخل فيه الإسلام والإيمان.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.

(٢) انظر: ثلاثة الأصول، محمد بن عبد الوهاب ص ١٤.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ١١٧.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٤/ ٢١٢.

وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين^(٤).

«والعمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله، ولقد عد الإسلام أعمالاً كثيرة صالحة لم تكن تخطر ببال الناس أن يجعلها عملاً صالحاً وقربة إلى الله تعالى، فجعل كل عمل يسمح به الإنسان دعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقلل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يهدي حائراً أو يعلم جاهلاً، أو يدفع شراً عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعا إلى كل ذي كبد رطبة.. جعل كل ذلك عملاً صالحاً ما دامت النية فيه خالصة لوجه الله الكريم^(٥)».

ومما يستنبط من اقتران الإيمان والعمل الصالح:

❖ أن الإيمان علم وأُس والعمل بناء، ولا غناء للأس ما لم يكن بناء، كما لا بناء ما لم يكن له أس، فإذا حققهما أن يتلازما لذا قرن بينهما.

❖ أن الغالب في اقتران الإيمان والعمل الصالح، الحديث بصيغة الجمع ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص ٣٨١٨.

(٥) العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٥٧ بتصرف يسير.

اقتران الإيمان بالعمل الصالح

تكررت جملة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في القرآن (٥١) مرة.

وهذه الجملة هي الصيغة، وهي معظم ما اقترن به الإيمان مع العمل الصالح في صيغ الاقتران بينهما، والتي بلغت (٦٩) مرة^(١). وهذا الاقتران يدل على ارتباطهما الوثيق وتلازمهما المستمر، فلا إيمان بدون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح بدون إيمان يقوم عليه ويركن إليه، فالإيمان بدون عمل كالشجر بلا ظل ولا ثمر، والعمل الصالح بدون إيمان كالجسد بلا روح^(٢).

المقصود بالعمل الصالح: ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع المسنون.

ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»^(٣).

وقال ابن عاشور رحمه الله: «العمل الصالح: هو العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحاً لا يشوبه فساد،

(١) انظر: المعجم المفهرس، عبد الله جلغوم / ١٨٢ - ١٨٧.

(٢) يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، الشرقاوي ص ٣٦.

(٣) مجموع الفتاوى / ١ / ١٩٤.

المؤمن من أسماء الله تعالى

سمى الله تعالى نفسه الكريمة بالمؤمن، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

من معاني المؤمن في حق الله تعالى:

١. شهادته سبحانه لنفسه بالتوحيد. قال الزجاج رحمه الله: سمي الله نفسه مؤمناً؛ لأنه شهد بوحدانيته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. كما شهدنا نحن^(٣).

٢. الذي آمن عباده من ظلمه. قال الطبري رحمه الله: «المؤمن: الذي يؤمن خلقه من ظلمه»^(٤).

وقال الزجاج رحمه الله «ويقال إنه في وصف الله تعالى يفيد أنه الذي آمن من عذابه من لا يستحقه»^(٥).

٣. الذي صدق رسله عليهم السلام. قال السعدي رحمه الله: «المؤمن الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، ويكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل

وهذه الصياغة جاءت جمعاً في المتحدث عنهم وعن أعمالهم، فهم جماعة تبينوا تصوراً واحداً، وأسسوا على هذا التصور أعمالاً صالحات في جميع مناحي الحياة، يصح أن تقوم عليها نهضة حضارية، يقود بها أهل الإيمان والعمل الصالح الأمة إلى الخير والصلاح.

ترتب على الإيمان والعمل الصلاح الفلاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوْفَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧]. أي: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب^(١)، الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين^(٢).

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٥٥٢.

(٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

(١) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٢٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤ / ٢١١.

أركان الإيمان في القرآن

للايمان ستة أركان، أربعة منها مذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ [البقرة: ٢٨٥].

روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأحق له أن يؤمن) (٣).

قال ابن عطية رحمه الله: «سبب هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوا﴾» [البقرة: ٢٨٤].

أشفق منها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح

كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤا به (١).

معنى المؤمن في حق المخلوقين: سمي سبحانه وتعالى بعض عباده بالمؤمن، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٨].

ومعنى المؤمن إذا وصفنا به المخلوقين: هو الواثق بما يعتقده المستحكم الثقة (٢). وبمعرفة الإنسان المؤمن لمعاني هذا الاسم في حق الله يطمئن قلبه إلى ربه سبحانه وتعالى، وما وعده من سعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة، ويوجب عليه أن يثق بما يعتقده.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة، رقم ٣١٣٤.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي في التلخيص فقال: منقطع.

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، السعدي ٢٣٩.
(٢) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣٢.

صف المؤمنين وصف الكافرين، حزب الله وحزب الشيطان، فليس هنالك صف ثالث على مدار الزمان»^(٣).

ويستفاد من هذه الآية: ثناء الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين في إيمانهم إيمانًا خالصًا يتفرع عليه العمل، وأن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

والركن الخامس من أركان الإيمان هو: الإيمان باليوم الآخر، ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ أَكْفَرٌ مِّنْ ءَمَنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والركن السادس من أركان الإيمان هو: الإيمان بالقدر خيره وشره، ذكر في الحديث المشهور الذي رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سأل جبريل النبي عن الإيمان فقال: (... فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى»^(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أخبر سبحانه وتعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، فقال: فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون يارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين»^(٢).

«إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين، الإيمان الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض إلى يوم القيامة، الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائرة في موكب الدعوة وموكب الرسول وموكب الإيمان الممتد في شعاب التاريخ البشري، الإيمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفيين اثنين:

(١) المحرر الوجيز ١ / ٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ٥٧٢.

(٣) في ظلال القرآن ١ / ٣٤١.

وشره قال: صدقت^(١).

كَيْفَ شَيْءٌ وَهُوَ السَّيِّعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾

[الشورى: ١١].

وهو سبحانه وتعالى الأول قبل كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وكما قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨].

وهو سبحانه وتعالى بذاته وجود غيبي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، ولكنه يعرف بآثاره في كل شيء، وتقوم كل دروب الأدلة على وجوده وتفرد، واستحقاقه لكل صفات الكمال.

ودليل وجوده سبحانه وتعالى: هو العقل والفطرة والشعور الباطني، وكل ما خلق الله.

أما دليل العقل: فقولته تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخُلُقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

«وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

١. إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

وهذه الأركان الستة هي التي بعث الله بها الرسل وأنزل بها الكتب، ولا يقبل إيمان عبد إلا إذا آمن بها جميعاً على الوجه الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وسوف نتناول هذه الأركان فيما يلي:

أولاً: الإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله: هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه^(٢).

والإيمان بالله يتضمن توحيده في ثلاثة: ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، ومعنى توحيده في هذه الأمور: اعتقاد تفرده بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال.

وسوف نتكلم عن الإيمان بالله تعالى^(٣) في النقاط الآتية:

١. الوجود الإلهي.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن الله تبارك وتعالى من حيث هو ذات حقيقية، وله وجود حقيقي لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، رقم ١٠٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١ / ٣٩١.

(٣) انظر: محاضرات في التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح السعيد ص ٧٥، والمدخل في التفسير الموضوعي، له ص ٩٩.

٢. أم أنهم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضًا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم. فإذا بطل هذان الأمران، ويان استحالتهما، تعين:

٣. أن الله خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى. وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

[الطور: ٣٦].

وهذا استفهام يدل على تقرير النفي، أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدًا. ولكن المكذبين ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية^(١).

فبداهة العقل عند كل إنسان تقضي أن لكل مصنوع صانعه، وأن لكل حادث موجه؛ ولذلك ذهب القرآن الكريم ودأب على حثهم على التفكير، وعلى قلب النظر في ملكوت السماوات والأرض، وملاحظة جانب الإبداع في هذا الخلق؛ فإن ذلك يقتضي من صاحبه أن يوقن يقينًا مطلقًا، وأن يؤمن الإيمان الوثيق بهذه الذات العليا التي تقوم على هذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(١) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ٨١٦.

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْهَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضِ مَدَدْتَهَا وَآلَقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾ [ق: ٦-٨].

أما دليل الفطرة المركوز في النفس فمقرر في قوله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول تعالى: «فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»^(٢).

«وهذه الدلائل يصل بها الإنسان إلى معرفة قوة عليا مهيمنة، لكنه لا يستطيع بنفسه الوصول إلى معناها الصحيح، ولا إلى معرفة حقوقها وأوصافها على وجه صادق، ولذلك كان الطريق الوحيد لهذه المعرفة الصحيحة، هو الوحي الإلهي، وقد علم الله تعالى - عباده ذلك منذ خلق آدم، ثم أرسل رسله تترى لمقارعة الجاهليات ولتصحيح المعتقدات، فلم يزل اسمه سبحانه وتعالى ومسماه شائعًا معروفًا بين الأمم في كل

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ٢٨٢.

[يونس: ١٨].

لذلك كان الأصل والأساس الذي بعث به الرسل، ونزلت من أجله الكتب هو: تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء، والأنداد، والنظراء والصاحبة، والأبناء، وصرف وجوه العباد إليه وحده سبحانه، وتفريده وحده في الاعتقاد والعمل، والعبادة والطاعة بالذكر والدعاء، وسائر ما لا يليق إلا به وحده سبحانه وتعالى، لذلك كان لصفة الوحدانية الصدارة في الصفات الإلهية جميعاً، فهي حقيقة الحقائق الواقعية من حيث الوجوب، ثم هي أصل الحقائق التشريعية من ناحية الوجود، ومن ثم فقد جاءت أدلتها دالة بالطريق الأولى على الوجود الإلهي، وهي دلائل متعددة، ولهذا كله أبرزها القرآن الكريم إبرازاً، وقص علينا من أنباء الرسل ما يؤكد أمرها، وأنها كانت محور دعواتهم جميعاً ولب رسالتهم، ومدخلهم إلى استتباع الناس لدين الله تعالى، فجاء على لسان كل من نوح وهود وصالح وشعيب ألفاظ واحدة ﴿يَقُولُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٍ﴾ [الأعراف:

٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وعلى هذا النمط جاءت دعوة الرسل عليهم السلام جميعاً كما يذكر القرآن ذلك تفصيلاً، حتى علم خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس هذه

العصور حتى في أوساط المشركين، كما قص القرآن علينا ذلك عنه مراراً سبحانه وتعالى ويقول: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩].

ولذلك كان الاعتراف بهذه الذات العليا حقيقة عالمية لم يشذ عنها إلا المكابرون، المعاندون من الطواغيت كالفراعنة، أو آحاد من الطبيعيين والدهريين^(١).

٢. الوحدانية.

هذه الصفة تعني تفرده سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، فليس له في ذلك شريك، ولا نظير ولا مقارب، أو مثيل، وهذه الحقيقة جعلها الله سبحانه وتعالى فاتحة التكليف ومحور الدين، وعليها تتأسس كلياته وجزئياته، ولم يكن الوجود الإلهي قضية بين الوحي والأمم لشيوعه بينهم، ولتسليمهم به، ولكنهم كانوا يتخذون معه سبحانه وتعالى شركاء، تحت مختلف الدعاوى والأسماء، حتى قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ويقولون كما قال ربنا عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد ٩٩/١٠٠.

الكلمات المتفردة في الإيجاز والإعجاز،
(بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلَمْ يُولَدْ ۝ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص ١-٤].

وهذه الآيات على وجازتها شاملة
لأصول الصفات الإلهية، وردت على جميع
أنواع الملحدّين فيها، ثم هي مقررة لأسمى
العقائد اللائقة بالله عز وجل، ومصححة
لضلالة أهل الكتاب، ناهيك عن المشركين
والمُلحدّين، وكفى بها دلالة على صدق
النبي الأمي في نسبة هذا الدين إلى الوحي
الإلهي؛ ولذلك جاء في الحديث الذي رواه
مسلم بسنده عن أبي الدرداء، عن النبي
صلى الله عليه وسلم، قال: (قل هو الله أحد
تعدل ثلث القرآن)^(١). أي: أنها تعدل ثلث
القرآن، أو هي ثلث القرآن من حيث دلالتها
على أهم مقاصده، وهي الدعوة إلى توحيد
الله سبحانه وتعالى.

فالآية الأولى: إثبات للوحدانية بأبلغ
وجه، ولذلك قالوا إن لفظ الأحد خاص
بوصف الله لا يوصف به غيره، فلا يقال:
رجل أحد، إنما يقال: الله أحد.

والثانية: بيان لأسباب (أحديته) سبحانه،
بتقرير أنه السيد الكامل في جميع صفاته

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين
وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد،
رقم ٨١١.

وأفعاله، المقصود في جميع الحوائج وهو
الغني عن كل شيء.

والثالثة والرابعة: بيان لهذه الأسباب
أيضًا بتقرير تفرد ذاته عن الأصول والفروع،
لم يلد ولم يولد وما يلزمها من الصاحبة،
أما أو زوجًا؛ ولذلك تنزه عن كون في
درجته، وإن لم يكن أصلًا ولا فرعًا، وهذا
التفصيل جاء على سبيل الحصر في دعوة
الرسل جميعًا على ما قرره القرآن الكريم
على سبيل الإجمال والتعميم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

» ويؤخذ من هذا:

أولًا: أن الوحدانية وحي إلهي لكل
الرسل، لم يוכלوا فيه إلى أفهامهم وعقولهم
الراجعة، حتى هذه العقول الراجعة لا
توكل إليها قضية الوحدانية والتوحيد، لذلك
يتولى الوحي الإلهي تقريرها.

ثانيًا: أنها رأس الوحي وأفضله وأوله،
وقد جاء ذلك في الحديث الذي رواه
الترمذي بسنده عن عمرو بن شعيب، عن
أبيه، عن جده، أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة،
وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد
وهو على كل شيء قدير)^(٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٥ / ٤٦٤، رقم

وفي مدلولها الشامل:

أولاً: ففي جانب الربوبية: يجب اعتقاد تفرد ذات الله عز وجل عن كل شبيه ونظير، وتفردة سبحانه وتعالى بكل صفات الخلق والملك، والتدبير والتأثير، وكل معاني الربوبية.

ثانياً: وفي جانب الإلهية: يجب اعتقاد تفردة سبحانه وتعالى بحق العبادة والطاعة، والأمر والحكم، والاستعلاء، وكل ما هو داخل في معنى الألوهية.

وهذا تقسيم بحسب المعاني، وإلا فهما وصفان لله الواحد الأحد المتفرد بهما، والتوحيد هو جميع هذين الأمرين معاً، فلا يقبل التجزئة ولا الانقسام، ولما كان ادعاء الخلق والتدبير لغير الله عز وجل لا يكاد يوجد إلا على سبيل المكابرة والمهاترة، وكان الذي كثر في الأمم وشاع: هو اعتقاد أن لغير الله تعالى حقاً ما في الطاعة أو العبادة؛ لذلك تركز تصحيح الرسل عليهم السلام على هذا الجانب، وكثر النزاع بينهم وبين أقوامهم فيه؛ ولذلك كانت الدعوة إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي مفتاح الدخول في الإسلام، ومعول نقض الجاهلية؛ لأن معناها اعتقاد تفرد الله تعالى بالعبادة والطاعة وحده لا شريك له، وأول ما يترتب عملياً على ذلك هو قبول منهاجه ودينه، ورفض مناهج البشر والطواغيت من السدنة، والكهنة، وأصحاب

ثالثاً: أن هذه الحقيقة الاعتقادية الأولى تستلزم خضوعاً كلياً لله تعالى، متمثلاً في إفراده بالعبادة والطاعة عملاً، بعد إفراده بالوحدانية اعتقاداً، ولذلك ختمت بها الآية الجامعة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وجاء تفصيلاً على لسان كل رسول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقررها القرآن الكريم كثيراً بالإجمال والتفصيل، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

رابعاً: أن الآيات الكريمة تستعمل دائماً أسلوب النفي مع الإثبات خاصة في مجال التكليف الذي يقصد فيه الأمرين جميعاً، أعني: إثبات الوحدانية لله تعالى ونفيها عن كل شيء عداه، تأكيداً لتفردة عز وجل، وإبطالاً لدعوى المشركين والملحدين في كل زمان^(١).

أقسام الإيمان بالله تعالى:

يقضي الإيمان بالله تعالى إفراده تعالى بحقوق لا تكون لغيره، وهذا هو معنى التوحيد الذي يتحقق بامثال العبيد لهذه العقيدة التي كلفوا بها في معناها الواسع،

٣٥٨٥.

قال الألباني: صحيح.

انظر: مشكاة المصابيح ٢٥٩٨.

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد، ص ٨.

السلطان، والتخلص من شرائعهم وقوانينهم وأعرافهم، ومن هنا كان هذا التوحيد خطرًا داهمًا على هؤلاء وأمثالهم، فكانت العدوات تندلع بينهم وبين الأنبياء بادئ الأمر بلا روية، وكأنها قانون يتكرر باطراد، كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم في مطلع الوحي، حين جاء يسأل ورقة، فقال له: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)^(١). «ومن هنا يتضح ارتباط هذه القضية بأصل الأصول وهو التوحيد، وأن الإخلال فيها وضعًا أو اتباعًا هو إخلال بهذا الأصل، فإن كان الإخلال اعتقادًا صار شركًا يبطل التوحيد، وإن لم يصل إلى درجة الاعتقاد كان من كبائر الإثم، بل كان تطاولًا خطيرًا على حق الله المتفرد في الحكم والأمر، وعلى حقه في العبادة والطاعة، يوجب على المؤمنين أن ينكروه وأن يبرؤوا منه، وأن يقاوموه بكل الطرق التي حددتها شريعة الله تعالى، حتى يفني أصحابه إلى أمر الله عز وجل، ومن ناحية أخرى: كان الإخلال بالتوحيد في هذا الجانب الخطير هو المستول عما تعانيه البشرية من كوارث شاملة، خلقية كانت أو اجتماعية، أو سياسية، وذلك لاحتراف الإنسان أمر التشريع وهو لا يحسنه ولا يحيط به خبرًا، وقد كان

الخطأ في المعرفة الصحيحة للإله الواحد، واستخدام هذه المعرفة في الحياة اليومية، أحد الأسباب الأساسية في اضطراب الحضارة المعاصرة»^(٢).

ثالثًا: التفرد بصفات الكمال المطلق: فما من صفة من صفات الكمال المطلق الذي لا تحده نسبة ولا إضافة إلا والله تبارك وتعالى متصف بها، فوق ما تتصوره عقولنا المحدودة، يقول الله تعالى في تقرير اختصاصه بالخلق ابتداء، ثم الإعادة، وفي تقرير كونها أهون عليه، مع أنهما أمران عظيمان، تحار فيهما العقول.

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

ويقول سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وجماع ذلك كله: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، رقم ٤.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار سعيد ص ٣٣٠-٣٣٣.

قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٣-١٤].

بل إن علمه سبحانه وتعالى أدق وأشمل من كشف سرهم، إذ يصل إلى ما هو أبعد من ذلك ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وأي شيء أخفى من السر؟ لعل ما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، أو لعله ضمير النفس، كما يقول بعض المفسرين، وهذا ما يسمى حديثًا باللاشعور، حيث لا علم لصاحبه به ولا سيطرة له عليه، ولعله ما يمرق من الخواطر من سوانح الفكر، التي تمضي كلمع البرق أو تتابع كلمح البصر، والقرآن الكريم فياض بذكر هذه الصفة، ويسعة مدلولها وامتدادها، ومصرح بأن من الأشياء ما استأثر الله بعلمه، ولا سبيل لخلق ما إلى معرفته. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو سبحانه وتعالى يحيط علمًا وخبرًا بكل خلقه، حتى الذر في أحجاره، والطيور في أوكاره، والثمر في أكمامه، والأجنة في الأحشاء، وكل غائبة في الأرض وفي السماء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

لأنفراده وتوحده بالكمال من كل وجه^(١). وهذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

ونذكر هنا ببعض الصفات التي أكد الله تعالى عليها في كتابه العزيز.

العلم

فأله عز وجل يعلم الأشياء كلها علم إحاطة وانكشاف، السر عنده علانية، الغيب عنده شهادة، ولا تقف أمامه حوادث الزمان والمكان، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد أحصى ذلك عددًا ووصفًا، وكل شيء كما قال ربنا: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وقال ربنا: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

وهذا الكتاب المبين: هو اللوح المحفوظ، وهو سبحانه وتعالى لا يعلم الأمور الجزئية فحسب؛ بل ما دون ذلك من الخفيات والطويات، ولقد قال للكفار حين ظنوا أنه لا يسمع تأمرهم ونجواهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٤.

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْقَيْبُ
وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد: ٨-٩].

ويقول ربنا سبحانه ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧].

ويقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وهو في كل هذا العلم رقيب شهيد
وقريب، يسمع ويرى، فعلمه ليس انطباعاً من
قراءة كتاب، أو إدراكاً من خبر ملك ونحوه؛
ولذلك كان من أسمائه الحسنی: الشهيد،
الذي يدل على هذا العلم الحضوري الذي
تكشف له به الأشياء، انكشافاً تاماً بلا سبق
خفاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ
وَمَا تَتَلَوُا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعِثُونَ فِيهِ وَمَا يَنْصُرُ
عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ
﴿١١﴾ [يونس: ٦١].

فهذا علم مطلق شامل محيط، لا
يقاس بعلم غيره، وهو وحده سبحانه
وتعالى المتفرد به، وهذه العقيدة إحدى
الدعائم الأساسية التي يقوم عليها التشريع
الإلهي، من حيث ابتداء وضعه على سلامة

واستقامة، ومن حيث لزوم تطبيقه بوازع
الضمير، الذي ينقدح فيه دائماً: أن الله تبارك
وتعالى يعلم سره ونجواه، ولا يخفى عليه
شيء في الأرض ولا في السماء.
﴿القدرة.

بعد العلم القدرة، وهي ككل صفاته عز
وجل الشبوتية مطلقة شاملة، لا تحجزها
العوائق، ولا تقف دونها العقبات، ولا تحد
بحدود العقل البشري، ولا بغيره من أدوات
الخلايق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
[البقرة: ٢٠].

وإن حرف تأكيد، وشيء نكرة عامة
أضيف إليها أداة عموم، وهي لفظ، كل
فأفادت قدرة الله تعالى المطلقة على عموم
الأشياء بلا استثناء، ومهما تعاظم العقل
أمراً من أمور النشأتين، فهو سهل يسير
في رحاب هذه القدرة العظمى، كما قال
ربنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿يَوْمَ نَسْفُتُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ
خَشَرٌ عَلَيْهِمْ يُصِيرُ﴾ [ق: ٤٤].

ويقول ربنا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ
أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ويقول: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا
قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقد ورد في السنة أيضًا ذكرها إجمالاً، كقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة)^(١).

وتفصيلاً وردت في عدة روايات، وذكر معظمها في القرآن الكريم نثراً في مواضع كثيرة، وهذه الأسماء قد لوحظ فيها المعاني العظيمة التي تدل عليها، وهي تعطي المعنى الحقيقي الكامل للعقيدة الإلهية، ويتم بها الوصف الشامل للإله الحق المطلق الخير والقوة جميعاً، كما أراد أن يعلم عباده وأن يعرفهم نفسه على ما هو عليه من كمال وجلال وسمو وتفرد، وشدة واقتدار.

الله تعالى حاكماً وشارعاً:

يقول الشيخ محمد المدني رحمه الله: «القرآن الكريم فرغ من قضية التوحيد، ومن محاجة المشركين، وفرغ من إقامة الدليل على بطلان زعمهم في أن لله شركاء يعبدون، كما يعبد، ويرجون كما يرجي، فرغ القرآن الكريم من هذه القضية، حين كان ينزل في مكة ويقرع المشركين، أما وقد صار المسلمون مجتمعاً جديداً مؤمناً في المدينة، فإن القرآن الكريم لا يتناول أمر

ويقول ربنا سبحانه وتعالى في آية عامة جامعة: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْشَكُم إِلَّا كَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

ونجد غير ذلك كثيراً جداً في القرآن، فهذه إذن قدرة ذات تأثير شمولي في كل أبعاد الكون، أحياء وأمواتاً، ما نعلمه وما لا نعلمه، والله تعالى وحده هو المتفرد فيها بالتقدير والتأثير، فتبارك الله رب العالمين. ❁ الأسماء الحسنى.

وهي كلها أوصاف كمال وجلال لله رب العالمين، جرت مجرى الأسماء، وجاءتنا عن طريق الشرع إجمالاً، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وورد بعضها تفصيلاً كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٢] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَمَّا إِلَٰهُكُمْ فَالدُُّّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٢٣] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: إن لله مائة اسم إلا واحداً، رقم ٧٣٩٢.

الوحدانية كقضية يناضل عنها على الوجه الذي كان في البيئة المكية المشركة، ولكنه يتحدث عنها على نحو آخر، نرى في سورة النساء مظهرًا له (التوحيد عملاً بعد التوحيد علمًا)، فهو يتحدث عن وحدانية الله، كما يجب أن يستقر في المجتمع عملاً بعد أن قامت الأدلة عليه حجة ونظرًا، فبينما هو يقول في إيجاز: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلا يعدو أن يكون مذكراً بقضية استقرت، وقام الدليل من قبل على صحتها، نراه يتحدث عن الله تعالى مشرعًا، يجب على الناس أن يتلقوا أحكامهم عنه، وأن يؤمنوا إيمانًا خالصًا بأنه هو وحده صاحب الحق المطلق في ذلك، من جهة أنه هو الخالق، ومن جهة أنه هو المتصف بالصفات التي لا بد منها فيمن يشرع، ومن جهة أنه رقيب لا يغيب^(١).

ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله: «تحدث عن المقصد الثالث من مقاصد سورة البقرة، والخطوات التي مهدت له في السورة الكريمة، ثم يقول:

الخطوة الأولى: تقرير وحدة الخالق

المعبود.

الخطوة الثانية: تقرير وحدة الأمر المطاع، وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألا تتخذ في عبادتك إلها من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حكمًا في سائر تصرفاتك، بل تعتقد أنه لا حكم إلا له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله والحرام ما حرمه، ومن استحل حرامه أو حرم حلاله فقد كفر، وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويعبد غيره، والرازق ويشكر سواه، كذلك لا يليق أن يكون هو الحاكم ويطاع غيره.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كَلًّا وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَاكٌ طَبِئًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحوًا من مسلكه في تقرير الوحدة الإلهية^(٢).

ويقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد حفظه الله: «أن قبول شريعة الله عز وجل ليست أمرًا من أمور التكليفات الفرعية، وإنما هي أمر ملزم واجب بمقتضى عقد التوحيد، وشهادة التوحيد، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله» معناها: أنني لا أعبد ولا

(٢) انظر: كتاب النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ٢١٧.

(١) انظر: المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني ص ٣٣.

عقيدة التوحيد»^(١).

ثانيًا: الإيمان بالملائكة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الملك في اللغة: حامل الألوكة وهي الرسالة»^(٢).

الملائكة في الاصطلاح: «أجسام نورانية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، وأبطل من قال: أنها الكواكب أو أنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها»^(٣).

والإيمان بالملائكة: هو اعتقادهم عبادًا لله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم»^(٤).

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان ، كما قال تعالى: ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن ينكر وجودهم فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار فتح الله سعيد ٦٨.

(٢) النبوات ص ٢٥٧.

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٠٦.

وانظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٢٩.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

أطيع إلا الله، وعلى أي وجه يطيع الله؟ لا يعبد الله إلا بما شرع، والله عز وجل ما شرع إلا ما علمه ويعث به محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومن هنا جاءت شهادة التوحيد مقترنة بشهادة محمد رسول الله، فيتلخص من ذلك: أن العبد المؤمن يقول: أشهد أني لا أطيع ولا أعبد أحدًا إلا الله على الوجه الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم؛ والمقرر في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك إذا انفصل المجتمع عن هذا فهذا الانفصال الهائل الذي وقع في أرجاء العالم الإسلامي دل على أن هناك انفصامًا هائلًا في عقيدة التوحيد.

لابد أن نعي هذه القضية وأن نفهمها جيدًا، هنا ارتباط كامل بتقرير شريعة الله وقبول هذه الشريعة في واقع الحياة، ربما يخطئ الإنسان، أو ربما يقع في معصية فيستغفر ويعود، لكن أن يرفض شريعة الله في واقعه، وأن تستبدل القوانين الوضعية بشريعة الله سبحانه وتعالى أو توضع فوقها أو تقدم عليها، فهذا أمر في غاية الخطورة، وينبغي أن يتنبه إليه العلماء والدارسون والباحثون، وعليهم المسئولية في أن يعلموا أمتهم وشعوبهم ومؤسساتهم في كل أرجاء العالم الإسلامي، هذا الارتباط الذي لا يقبل الانفصام بين قبول شريعة الله عز وجل وبين

[النساء: ١٣٦].

قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ صَلًّا بَعِيدًا﴾ فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجة الطريق إلى المهالك ذهابًا وجورًا بعيدًا؛ لأن كفر من كفر بذلك خروج منه عن دين الله الذي شرعه لعباده^(١).

ويستفاد من الآية: أن الكفر بشيء من هذه الأركان كالكفر بجميعها؛ لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض. وتقديم الملائكة على الرسل؛ لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله.

و سوف نتناول الإيمان بالملائكة في النقاط الآتية:

١. خلقهم.

أخبر سبحانه وتعالى أنه قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض قوماً يخلف بعضهم بعضاً لعمارتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويفهم من الآية: أن الملائكة خلقت قبل آدم عليه السلام^(٢).

٢. المادة التي خلقوا منها.

وعن المادة التي خلقوا منها روى مسلم بسنده عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور)^(٣).

٣. الصفات الخلقية.

١. قدرتهم على تمثيلهم بالبشر.

أخبر سبحانه وتعالى أن أرسل إلى مريم الملك جبريل، فتمثل لها في صورة إنسان تام الخلق.

قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [١٧] ﴿مريم: ١٧﴾.

أي: تمثل جبريل لها بشراً مستوي الخلق، لم يفقد من نعوت بني آدم شيئاً، قيل: ووجه تمثيل الملك لها بشراً؛ أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته^(٤).

وقد جاء الملائكة إبراهيم في صورة بشر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَبِيٍّ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ [٢٤] ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [٢٥] [الذاريات: ٢٤-٢٥].

قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم ٥٣١٤.

(٤) فتح القدير، ٣/ ٣٨٧.

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٦.

(٢) انظر: فتح الباري، ٦/ ٢٣٤.

أي: ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود^(٥).

ويستفاد من الآية: الاقتداء بالملائكة في كثرة طاعتهم وعبادتهم، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ إنما يريد في المنزل والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان.

٥. علاقة الملائكة بالكون.

أخبر سبحانه أن الملائكة تنفذ أمره فيما أوكل إليها تديره من شؤون الكون، قال تعالى: ﴿فَالْمَدِيرَ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

قال قتادة: هي الملائكة^(٦)، و زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض يعني بأمر ربها عز وجل^(٧).

٦. علاقة الملائكة بالإنسان.

١. حفظ الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

ومما يحفظونه: بدن الإنسان، بقوله:

عليه في صورة شُبَّانِ حَسَانٍ، عليهم مهابة عظيمة^(١).

٢. لهم أجنحة.

أخبر سبحانه وتعالى أن من عظيم قدرته أن جعل الملائكة أصحاب أجنحة مثني وثلاث ورباع تطير بها؛ لتبلغ ما أمرت به سريعاً.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة^(٢).

روى مسلم بسنده عن عبد الله، قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

قال: (رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح)^(٣).

٤. علاقة الملائكة بالله تعالى.

علاقة الملائكة بالله هي علاقة العبودية الخالصة له، وفعل ما يأمرهم به، قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ١١٩.

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٩٥.

(٦) جامع البيان، الطبري ٢٤ / ٦٥.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٣١٥.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧ / ٣٩٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٣٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ولقد رآه نزلة أخرى، رقم ١٧٤.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾
[الرعد: ١١].

و مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنُوزًا﴾ [الأنفال: ١٠-١١].

٢. الدعاء للمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخِلُّونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك: الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم^(١).

٣. تثبيت المؤمنين في مواقع الجهاد. أخبر سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى الملائكة أن يقوا عزائم المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

قال ابن إسحاق: وازروهم.

وقال غيره: قاتلوا معهم، وقيل: كثروا سوادهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم، يعني: المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله عن علاقة الملائكة بالإنسان في معنى جامع: «والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نقطة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره.

وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٢٢.

(١) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٣٢.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يُغْلِبُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَهِ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ [الم نشر: ٣١].

والمعنى: ما جعلنا عددهم هذا العدد المذكور في القرآن إلا ضلالة ومحنة لهم، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم^(٢).

فيجب الإيمان بالملائكة الذين ذكروا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية وبالأعمال التي أوكلوها بها.

ثالثاً: الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، أو ما أخبر هو به^(٣).

فالواجب على المؤمن: الإيمان بالكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله، ما سمى الله منها وما لم يسم.

أما الذي يؤمن بكتاب ويكفر بالكتب الأخرى فهذا كافر بالجميع.

ومن هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وأعظمها التوراة والإنجيل والقرآن، وأعظم الثلاثة وناسخها وأفضلها هو القرآن.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٩٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٣٩١.

وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة. وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوى قلبه، ويزداد شكراً. وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومعلموه، وناصره، والداعون له، والمستغفرون له.

وهم الذين يصلون عليه مادام في طاعة ربه، ويصلون عليه مادام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعثه.

وهم الذين يزهّدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي، وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع.

وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته^(١).

٧. عدد الملائكة.

عدد الملائكة لا يحصيه إلا الله، ومنهم خزنة النار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ

(١) إغاثة اللفهان، ابن القيم ٢/ ١٣٠.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. يعني بذلك جل ثناؤه: «صدقوا بالله، وبمحمد رسوله، أنه لله رسول مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم، وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزل به الله عليه، وذلك القرآن، وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوراة والإنجيل»^(١). وقيل: المراد بالكتاب الثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية»^(٢). فالإيمان بالقرآن والكتب السابقة له ركن، «لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل»^(٣).

الكتب المذكورة في القرآن:

التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّشَّيْقُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ

شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

الزبور الذي نزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم وموسى -عليهما السلام-، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [ص: ١٨-١٩].

أما الكتب الأخرى التي أنزلها الله على سائر الرسل والتي لم يخبرنا بها فيجب الإيمان بها؛ لأنه سبحانه أخبرنا أنه ما من رسول إلا وجاء برسالة إلى قومه.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدَلٍ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ءَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

[٢١٣].

كما يجب أن يؤمن العبد بأن جميع

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٩٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٤٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٠٩.

هذا المرجع الأخير^(٢).

وقد تكفل سبحانه وتعالى بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

«وقد شمل حفظه: الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسر تواتره وأسباب ذلك، وسلمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمة عن ظهور قلوبها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر»^(٣).

ولذلك يجب علينا الإيمان بالقرآن وأن ما جاء به هو الحق، وأن كل لفظ فيه محفوظ من التبديل والتحريف، كما يجب اتباع أمره واجتناب نهيه، وتصديق ما أخبر به، ورفض ما يخالفه.

رابعاً: الإيمان بالرسل والأنبياء:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى بعث في كل أمة رسولا منهم، يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر رحمة بهم^(٤).

أخبر سبحانه وتعالى ما من أمة إلا

الكتب جاءت بالدعوة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة، وأن ما حدث في الكتب من تحريف فهو من صنع العباد.

أما القرآن فهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن الهيمنة التي للقرآن على الكتب السماوية التي بين يديه: أنه هو المصدق لها، الشاهد الذي ترى في أضوائه وفي أحكامه، وأخباره وآدابه - آيات صدقها، وأنها من مورد هذا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ ليس بعد شهادة القرآن شهادة، ولا وراء الحق الذي يقوله حق، وإنه سيظل قائماً هكذا إلى يوم القيامة^(١).

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم، فالمرجع الذي يعودون إليه بأرائهم في شأن الحياة كله هو هذا الكتاب، ولا قيمة لأراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٩٠٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٤ / ٢١.

(٤) منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان، علي بن ناصر فقيهي ص ٣٠.

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢ / ٣٩٦.

وأرسل فيها رسول، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ ﴿يُونُسَ: ٤٧﴾.

وقال: ﴿وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. أي: وما من أمة من الأمم الدائمة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير يندرهم بأسنا على كفرهم بالله^(١).

ولا يعلم عدد الرسل إلا الله، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وإنما لم يذكر الله تعالى قصص كثير من الرسل؛ اكتفاءً بالمذكورين، فالمقصود أخذ العبرة، لا ذكر الأسماء والقصص^(٢). وسوف نتناول الإيمان بالرسول في النقاط الآتية:

١. الرسل المذكورون في القرآن. المذكورون في القرآن من الرسل والأنبياء: خمسة وعشرون، منهم: ثمانية عشر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ

كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَاسْمِعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

ورود ذكر بقية الأنبياء في مواضع من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَأِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَأِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣].

فهؤلاء الأنبياء والرسل يجب الإيمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلاً، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة كفر، غير أن العامي لا يحكم عليه بالكفر، وأما الأنبياء والرسل الذين لم يقصهم القرآن علينا فقد أمرنا أن نؤمن بهم إجمالاً.

٢. أولو العزم من الرسل. ذكر الله تعالى أولي العزم من الرسل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وهؤلاء الخمسة صلى الله عليهم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب

(١) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٣٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٦ / ٣٥.

أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدر فأزال هذا الاضطراب»^(٤).

٤. واجبنا نحو الرسل والأنبياء.

✽ يجب علينا الإيمان بأن الرسل والأنبياء عليهم السلام قاموا بتبليغ الرسالة حق القيام.

✽ يجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل، ولا نفرق بين أحد منهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض كان من الكافرين بنص الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

✽ يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله كانوا بشرًا من الرجال.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢١٤.

الفاصلة على التوحيد وأولو العزم، وقدم ذكر محمد على مرتبته في الزمن تشريفًا خاصًا له^(١).

ويستفاد من ذكرهم عليهم السلام الاقتداء بهم في أعمالهم.

٣. حقيقة رسالة الرسل والأنبياء.

ما من رسول إلا جاء بكلمة واحدة، هي قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾، هذه الكلمة قالها نوح عليه السلام، وهي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين^(٢).

وقد بين الله الحكمة من إرسال الرسل، فقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. أي:

معذرة يعتذرون بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَتُخْزَى﴾ [طه: ١٣٤].

وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من العباد على الله حجة؛ تنبيهًا على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلاً منه ورحمة^(٣).

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته أن

(١) المحرر الوجيز ٤ / ٣٧١.

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٦٤.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ١ / ٦٢١.

رَبًّا لَا تُوحِي إِلَيْهِمْ ﴿يوسف: ١٠٩﴾.

ولم يخصصهم الله بطبائع غير الطبائع البشرية، فهم يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولهم عليهم السلام أزواجاً وذرية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَاطِلٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويتعرضون للأذى من الظلمة والمجرمين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

كما أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْنَعْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

يجب علينا أن نؤمن أن الله فضل بعضهم على بعض بحسب ما من الله

به عليهم.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

«يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحاته وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين»^(١).

ونؤمن بأن الرسول الكريم أرسل للناس جميعا.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ونؤمن أنه أرسل إلى الجن.

قال الله على لسان الجن: ﴿يَقَوْمًا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

ومما سبق ذكره يتضح أن الإيمان بالرسول يتضمن أربعة أمور:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٩.

منها: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقَدْ أَلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].
«أي: واستيقنوا أن هناك حياة آخرة، وأن فيها حساباً وجزاء، وجنة ونارا.. فعملوا لهذا اليوم العظيم بما ينجيهم من هوله، ويدينهم من رحمة الله ورضوانه»^(٢)، «وإذا حساب الآخرة يشغل بالهم، ويصدهم عن جموح الشهوات، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة»^(٣).
ولما كان هذا الأصل شديد الإيغال في طيات الغيب، كان أكثر الأصول إنكاراً واستبعاداً من الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أَصْلَابُهُمْ فَهُمْ يَمُوتُونَ﴾ [النمل: ٤].

١. الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.
٢. الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، مثل: محمد وإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وغيرهم بمن ذكر اسمه في الكتاب أو السنة على وجه التعيين، أما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً؛ حيث نعتقد أن الله بعث في كل أمة نذيراً.

٣. تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.
٤. العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر:

تعريف الإيمان باليوم الآخر:

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «وهو الإيمان بكل ما أخبر الله ورسوله به بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه، وعذابه وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهليهما، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بذلك جملة وتفصيلاً»^(١).

مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر:
* ذكر الله الإيمان باليوم الآخر مقترناً بالإيمان بالله في تسعة عشرة موضعاً في كتاب الله.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١٠ / ٢٠٨.
(٣) في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٢٧.

(١) انظر: الفتاوى السعدية ص ١٦.

وبالتالي كان أكثر الأصول جميعًا تناوَلًا في القرآن.

❖ كثرة أسماء اليوم الآخر، وكل اسم يدل على ما سيقع فيه من الأهوال.

فمن أسمائه في القرآن: «القيامة والساعة والآخره ويوم الدين ويوم الحساب ويوم الفتح ويوم التلاق ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الخلود ويوم الخروج ويوم الحسرة ويوم التناد والآزفة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية والواقعة وغيرها»^(١).

❖ تسمية سور القرآن بأسماء وصفات اليوم الآخر.

فتارة تسمى السور باسم من أسمائها: القيامة، الواقعة، الحاقة، الغاشية، القارعة، النبأ.

وتارة تسمى السور باسم من الأحداث الكونية التي تمهد لهذا اليوم: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

وتارة باسم ما يقع فيها، مثل سور: الأعراف، الزمر، الجاثية، الحشر، التغابن، المعارج.

فهذه أسماء (سبع عشرة) سورة تتعلق بالآخرة، ولم يقع مثل هذا قط لأي أصل من أصول الإيمان في القرآن الكريم.

❖ التأكيد على وقوع الساعة.

وكثيرًا ما عبر القرآن عن أن وقوع الساعة لا ريب فيه، من ذلك مثلاً: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

«ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن»، وبلاد الابتداء التي ترحلها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر؛ وذلك يدل على أمرين:

أحدهما: إتيان الساعة لا محالة.

والثاني: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني»^(٢).

ومن مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر: الترابط بين الخلق والحق والساعة، فقد بين القرآن أن الآخرة هي الأصل الذي يحقق حكمة الخلق ومعنى الوجود؛ لأنها غاية جزاء ومصير الخلائق، تصون وجودهم عن العبث واللعب، وتحفظ مصيرهم عن البطلان والضياع، وتجعله خالصًا، وحكمة تامة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [٣٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ

(١) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٢٦١-٢٦٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٣.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ
مِيقَتُهُمْ أَجْمِيعٌ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠].
وقال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾
﴿٤٠﴾ [النحل: ٢٢].

يجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة، بل يجعل إحداها دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء، فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله في الجزاء. «فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة، ولا يؤمنون بالآخرة- وهي فرع عن الاعتقاد بوحداية الخالق وحكمته وعدله- هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم. إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول، فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب!»^(١). «فعدم الإيمان بالآخرة جعل قلوبهم مفعمة بالإنكار والاستكبار، وقد حذف المفعولان للتعميم، فهم ينكرون الحق ويستكبرون عليه، وهم ينكرون حق الأمم والشعوب في عقيدتها وحريتها، ويستكبرون عن الاعتراف به، وهكذا يكون دائماً الكفار

والطواغيت ولا يزالون»^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

أي: «تمرد وعتا، وآثر الحياة الدنيا، أي: قدمها على أمر دينه وأخراه، فإن الجحيم هي المأوى، أي: فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله، فيه ونهى نفسه عن هواها وردّها إلى طاعة مولاه، فإن الجنة هي المأوى، أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء»^(٣).

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى. ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حساباً. واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره. فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده، واختلت كل

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار

فتح الله سعيد ص ٢٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٣١٩.

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٦٧.

القيم في تقديره، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعد طاغيًا وباغيًا ومتجاوزًا للمدى^(١). و من هداية الآية: «قدم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا؛ لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا»^(٢).

من مشاهد الآخرة في القرآن:

تبدأ المشاهد بمقدمات اليوم الآخر، ثم الفصل بين الخلائق، ثم النعيم الأبدي أو العذاب الأبدي، من هذه المشاهد:

١. نفخة الصعق.
قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِيَأْمٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

«وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن. ﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق،

كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم، وهذه النفخة الأولى: نفخة الصعق، ونفخة الفزع»^(٣).
٢. نفخة البعث.

وهي النفخة الثانية؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِيَأْمٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أي: «قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم»^(٤).
٣. تصدع الكون وتبديله.

يرى الخلائق بعد بعثهم مشاهد أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لِّلنَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].
وقال تعالى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، يبذل الله عز وجل الأرض من غير الأرض ويغير هيئاتها، ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئات الهائلة ليشاهدها أهل المحشر، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَنَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٧٢٩.
(٤) المصدر السابق.

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨١٨.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠ / ٨١.

بِإِيمَانِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبُ ﴿١٩﴾ [الحاقة: ١٩]. يعني: خذوا اقربوا كتابيه ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْتَنِنِي لَوْ أَوْتِ كِتَابِيهٗ﴾ ﴿وَلَوْ أَدْرَ مَا حِسَابِيهٗ﴾ ﴿يَلْتَنِنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهٗ﴾ ﴿هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهٗ﴾ ﴿٢٠﴾ [الحاقة: ٢٠-٢٥].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ﴿١٣﴾ [الانشقاق: ٧-١٣]. يعني: في الدنيا. ٦. الشهود.

وهذا من تمام إظهار العدل الإلهي في هذا الموقف العظيم، فإن الله عز وجل يستشهد على المذنبين قبل إدانتهم مع علمه عز وجل القاطع بما عملوا، لكنه لا يريد أن يعاملهم بعلمه، لكن يعاملهم بالشهود حتى يتأكد كل إنسان من ذنبه وعمله.

• والأنبياء هم أول الشهود عليهم السلام، يشهدون على أمهم بالبلاغ، وإقامة الحجة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ [النساء: ٤١].

• والملائكة، وهم أيضًا يشهدون؛ لأنهم سجلوا الأعمال، وشهدوا الطاعات والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَحَافَتِ

قَامًا صَفِصَفًا﴾ ﴿١٠﴾ ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١١﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٨].
وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَتَبَرُّوْنَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

«فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام وبرز الخلق لله سبحانه لا يكون إلا بعد البعث قطعًا» (١).

٤. حساب الله للخلائق.
يحدثنا الوحي الإلهي طويلًا عن حساب الله تعالى للخلائق في هذا اليوم الشديد، والذي يتسم بالعدل.
٥. تطاير صحف الأعمال.

صحائف الأعمال التي سجل فيها عمل كل فرد على حدة.

قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَهُ لَطْفَرُهُ فِي غُتُوهِ وَنُفِخَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ﴿١٤﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

قال الحسن رحمه الله: «قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك» (٢).

ويبلغ الوحي الإلهي غاية من التفصيل حيث يبين كيفيات تسليم الكتب، وأحوال الناس عندها، يقول ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ١٩٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٢٣.

كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ [ق: ٢١].

والأرض أيضًا تشهد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ [الزلزلة: ٤].

وقد فسر النبي أخبارها في الحديث الذي رواه أحمد عن أبي هريرة، قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ [الزلزلة: ٤].

قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبيد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عملت علي كذا وكذا يوم كذا وكذا)، قال: (فهو أخبارها) ^(١).

أيضًا من الشهود: جوارح الإنسان، أي: خاصة عندما يماري، ولا يرضى إلا شاهداً من نفسه.

يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] يعني: فلا تنطق ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويقول جل شأنه: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَتْهُمُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، تفسير سورة (إذا زلزلت الأرض)، رقم ٢٤٢٩.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد. انظر: ضعيف الترمذي ١/ ٢٧٥.

[النور: ٢٤].

ويقول: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِيُجْلُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

٧. السؤال الشخصي.

ليدافع كل إنسان عن نفسه، وليبين أَعذاره إن كانت له أَعذار، والله تعالى مع ذلك أعلم بالمرء من نفسه، قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَنِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُوهَآ إِنَّهُنَّ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ [الصفافات: ٢٢-٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَرَّ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

٨. وضع الميزان.

ليوفي كل إنسان جزاءه في دقة كاملة بالغة حتى مقادير ومثاقيل الذر والخردل، كما قال ربنا: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧] جل شأن الله. ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾

[النساء: ٤٠].

وعلى نتيجة هذا الميزان العدل يقضي الله تعالى بالحق بين عباده: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٦ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-٧].

يعني: ثقلت بالحسنات، والطيبات ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ [القارعة: ٨].

[٨].

علمنا المحدود، ولم تشاهدها حواسنا، ولكنها أعدت للمتقين، وأخبرنا بها رب العالمين، وينبغي أن نوقن بوجودها أكثر مما نوقن بحاضرنا المشاهد؛ لأنها وعد الله الحق، وجزاؤه الصدق، كما قال ربنا: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا وعد سجله في كتبه الثلاثة الأساسية التي أنزلها من السماء إلى أهل الأرض، على موسى، وعلى عيسى، وعلى محمد صلى الله عليهم جميعاً يقول: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

وأما الكافرون فيساقون إلى جهنم زمراً، حيث يذوقون العذاب الأبدي، وحيث يذوقون شقاء الخلد بشؤم ذنوبهم، واستكبارهم على ربهم، وقد بلغ الوصف القرآني للنار وأحوالها ودركاتها وبلاء أهلها حدّاً يخلع القلوب خلعاً، وفي القرآن الكريم آيات تفرد وصف الجنة، وآيات تفرد وصف النار، وفيه آيات تجمع ذكرهما معاً؛ ليوافق العاقل، ويقارن بين الصورتين، كما قال تعالى عقب الكلام عن النار والجنة، وهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

من الحسنات والطيبات، وامتلات بالسيئات، يقول ربنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةً﴾ ٩ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾ ١٠ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ١١ [القارعة: ٨-١١]. نعوذ بالله منها.

وصف الجنة والنار:

فأما المؤمنون الصالحون فيبلغون سعادة الأبد، ويظفرون بنعيم الخلد، قال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] يعني: جماعات جماعات ﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ٧٣ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ٧٤ [الزمر: ٧٣-٧٤].

الأرض هي: أرض الجنة، ويصف الوحي الإلهي أحوال أهل الجنة، وما فيها من نعيم وصفاً تفصيلياً، في دار لم يبلغها

ومنها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْبَنَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ فِيهَا مِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

ثم تأتي الصورة الأخرى المزعجة: ﴿كَمْ هُوَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ وَصُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

لا يستويان أبدًا، يقول ربنا أيضًا: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ ائْتَصِمُوا فِي رِيبِهِمْ فَأَلْزَيْنَا كُفْرَهُمَا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۚ﴾ [الحج: ١٩-٢٠].

يصهر: يصير صهارًا مذابًا ﴿وَلَمْ يَمْلِكْ مِنْ حديدٍ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۚ﴾ [٢٢] إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۚ ﴿٢٣﴾ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾ [الحج: ٢١-٢٤].

والمقصود من هذه الأخبار والأوصاف: تشويق الناس إلى الجنة؛ ليعملوا بعمل أهلها هنا في الدنيا، ولتحذير الناس من النار؛ ليجتنبوا عملها وسوء حالها.

الخلود الأبدي:

أكد القرآن الكريم تأكيدًا قاطعًا أن الجنة والنار خالدين أبدًا، لا فناء لهما، ولا انقطاع فيهما، ولا موت لأهلها، وإنما هي حياة الأبد والخلود السرمدي، وقد ورد هذا في القرآن الكريم بأساليب كثيرة، أشهرها: أسلوب (الخلود الأبدي)؛ ذلك لأن معنى الخلود هو المكث الطويل، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي^(١): خوالد؛ وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها؛ ولذلك أكد الله تعالى خلود الجنة والنار بالأبدية، ليخرجه من المكث الطويل إلى البقاء الدائم؛ لأن معنى الأبد كما قال الراغب الأصفهاني: هو مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان^(٢).

وقد ورد تأكيد الجنة بالخلود الأبدي في ثماني آيات، والتاسعة بالمعنى في أول سورة الكهف: ﴿مَنْ كَانَتْ فِيهِ آيَةٌ﴾ [الكهف: ٣]. والمكث هو الخلود؛ فلذلك تكون تسع آيات، قيد الخلود فيها بالأبدية، مثلاً يقول: أصحاب الجنة خالدين فيها أبدًا، وورد تأكيد خلود النار بالأبدية ثلاث مرات

(١) الأثافي: هي جمع أثفية، وقد تخفف الياء في الجمع، وهي الحجارة التي تنصب وتجعل القدر عليها: انظر النهاية في غريب الأثر: ص ٢٣.

(٢) المفردات، الراغب ص ٥٩.

بالموت كهيفة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلوداً فلا موت، ويا أهل النار خلوداً فلا موت^(١).

ولعل أجمع ما يبين نعيم الجنة: هو الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري بسنده، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]^(٢).

سادساً: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر: «هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبق في علمه مقادير الخلائق - ويشمل ذلك ما يعمل به العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، ومن هو من أهل الجنة، ومن من

في القرآن: في آخر سورة النساء الآية ١٦٩، وفي آخر سورة الأحزاب الآية ١٦٥، وفي آخر سورة الجن الآية ٢٣، فهذه الآيات تقيد أيضاً أصحاب النار بكونهم خالدين فيها أبداً، والمراد بأصحاب النار: أهلها الذين هم أهلها، يعني: الكفار والمشركين، الذين ماتوا ولم يتوبوا توبة نصوحاً، أما المسلمون العصاة من المؤمنين فهؤلاء إن دخلوا النار وعذبوا فالله يغفر لهم بعد ذلك، ويخرجون مآلاً إلى الجنة إن شاء الله.

فالمراد بالخلود الأبدي لأهل الجنة جميعاً من يدخل الجنة، فلا يموت أبداً، ولا تنفى الجنة والنار، الخلود الأبدي لأهلها الذين هم أهلها كما جاء في الصحيح، هذا عدا الآيات الأخرى بغير هذا الأسلوب التي تؤكد أن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً، وأن أهل النار لا يخرجون منها أبداً مثل، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا لَهُمْ بِخُجُرَيْتٍ مِنهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]. ففي الآية الكريمة نفى للخروج منها، وإثبات للعذاب الدائم، ويقول تعالى عن أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِمُتَخَرِّجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وأُنذِرهم يوم الحسرة)، ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)، رقم ٤٤٠٦.

أهل النار- وقد كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

كما كتب لهم وعليهم ما تقتضيه حكمته من المقادير والأحوال التي يستحقونها على أعمالهم التي علم أنهم سيعملونها، وأراد إرادة كونية أن يقع ما علمه وكتبه لأجله الذي قدر له، وهو الذي يخلقه إذا حان الأجل، فهو الخالق لكل شيء بما في ذلك أفعال العباد، من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وغيرها^(١).

وسوف أتناول الإيمان بالقدر في النقاط الآتية:

١. أدلة القرآن على القدر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. «أي: كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. أي: خلقنا كل شيء مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة، أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح معلومًا

قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه^(٣).
٢. مراتب القدر.

للقدر أربع مراتب دلت عليها النصوص^(٤)، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات، وإحاطته بذلك علمًا، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

المرتبة الثانية: كتابة الله تعالى لكل شيء مما هو كائن إلى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].
وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

المرتبة الثالثة: المشيئة فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

(٣) الكشف، الزمخشري ٤ / ٤٤١.

(٤) الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، وزارة الأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية ص ٢٤٧.

(١) رسائل العقيدة، ابن عثيمين ص ٣٧، ٤٠.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣ / ٨٢.

الَّذِي يُمَيِّتُ وَيُحْيِي. وَإِذَا قَضَوْا أَثَرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: **كُنْ فَيَكُونُ** ﴿٦٨﴾ [غافر: ٦٨].

أما القدر التشريعي التكليفي ففيه الخيار، وقد عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين استصغارا لا استكبارا.

وحمله الإنسان اختيارا حين خير؛ ليم بذلك ما اقتضت حكمة الله تعالى من إيجاد جنسٍ من الخلائق يكلف اختيارا، ويرتّب على سلوكه نوعية الجزاء، ولو شاء الله عز وجل لكان الأمران جميعا على سواء، فينقاد الإنسان له في التوحيد والشعائر، وسائر الشرائع كما ينقاد له في قوانين الوجود الأخرى التكوينية، كالحياة والموت، والأكل والشرب والتنفس وغير ذلك، ولكن الله تبارك وتعالى ترك للإرادة الإنسانية جزءا من الاختيار، ليصح تعلق الثواب والعقاب بالفعل الإنساني.

ومن بديهيات العقيدة القرآنية: الإيمان بأن قدر الله كله مبني على غاية الحكمة والعلم المحيط، فكله حق ونعمة ورحمة، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [المرسلات: ٢٣]، وذلك في القدر التكويني، وكما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وذلك في القدر التكليفي التشريعي، والإنسان حين يخضع الأمور لمقياسه المحدود، يقول: هذا خير وهذا شر، وما

المرتبة الرابعة: خلق الله تعالى للأشياء وإيجادها وقدرته الكاملة على ذلك، فهو سبحانه خالق لكل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿٢٢﴾ [الزمر: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وروى البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض) ^(١).

فيجب الإيمان بهذه المراتب الأربع لتحقيق الإيمان بالقدر، ومن أنكر شيئا منها لم يحقق الإيمان بالقدر.

٣. أنواع القدر.

القدر بمعناه العام نوعان: قدر تصريفي وقدر تكليفي، أو تكوين وتشريع، والقدر التكويني التصريفي لا خيار لأحد فيه، والخلاق جميعا لا تملك معه إلا أن تصدع بأمر ربها وخالفها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٠﴾ [النحل: ٤٠]، ويقول ربنا: ﴿هُوَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، رقم ٣١٩١.

هذا إلا قياس بالمصلحة الشخصية، أو العلم المحدود الذي لا ينفذ وراء الأشياء ولا يستطيع، ومن هنا كان التسليم بالقدر الإلهي تسليماً مطلقاً، هو من لب الاعتقاد وصريح الإيمان، يقيناً بالله تعالى، وثقة فيه، واتهاماً للنفس والرأي، ومعرفة بحدود الإنسان وضآلة علمه، وهذا ما ربي عليه القرآن المسلمين، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال تعالى في عشرة الأزواج: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآيتان الكريمتان تشملان القدر بنوعيه، بل هما واردتان أصلاً لبيان أحكام تشريعية: وهي فرضية القتال وعشرة الزوجات، والمنازعة في القدر التشريعي أكثر من المنازعة في القدر التصريفي؛ لأن القدر التصريفي ظاهر القهر والنفاذ، والقدر التشريعي جعله الله مجالاً للاختيار والاختبار، ومن ثم كثرت الوصية بالتسليم فيه لله تعالى، بل جعل الله تعالى تحكيم شرعه ورسوله والتسليم المطلق بهذا التحكيم التشريعي شرطاً للإيمان،

كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فقد أقسم الله تعالى أن إيمان الناس لا يتحقق أو لا يكتمل إلا بالتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالرضا والتسليم بقضائه المبني على شرع الله تعالى، كما جاء ذلك صريحاً في نفس السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

٤. الاحتجاج بالقدر.

الاحتجاج بالقدر كان يثيره الكفار فيقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وغير ذلك من ألوان الاحتجاج بالباطل الذي رد عليه القرآن في مواضع كثيرة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والآية الكريمة إخبار بالغيب عن دعواهم الباطلة في الاحتجاج بالقدر، وهذا من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم؛

علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر^(١).

وفي ذلك دلالة على حكمة الله تعالى البالغة وراء الحوادث، وأن القدر الإلهي ليس عشوائياً، وإنما يمضي على نظام وإتقان، وإن بدا للناس أحياناً تحت وطأة النوازل أمراً غريباً مستنكراً؛ لأنهم لم يحيطوا به خيراً.

الأمر الثاني: لا سبيل في الأعمال الاختيارية إلى الاحتجاج بالقدر؛ لأن رب القدر هو الذي ترك لنا فيها الخيار ابتلاء واختباراً، وكلفنا بناء على هذا، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، ولهذا أعد الآخرة ثواباً وعقاباً، جزاء وفاقاً لهذا الجهد الإنساني الاختياري في طاعته، أو معصيته. والاحتجاج بالقدر يبطل ذلك كله، فعلمنا يقيناً أن الإنسان حر مختار في هذا الباب، وأن الله عز شأنه لم يجبر أحداً على الطاعة، وإنما أمر بها وشرع للناس سبيلها، ولم يرغم أحداً على المعصية، وإنما نهى عنها وبين حدودها؛ ولذلك أبطل الله تبارك وتعالى حجة المشركين حين تذرعوها بالقدر، واحتجوا لضلالهم بمشيئة الاقتضاء أو الارتضاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣١٤٩.

لأنه أخبرهم بما سيقولون مما علمه الله، فوقع الأمر كما قال تماماً.

وقد رد الله تعالى عليهم بدليل التاريخ الذي وقع للسابقين ممن قالوا مثل دعواهم، ثم تحداهم أن يكون لديهم علم يثبت دعواهم؛ وأكد ذلك بكشف حقيقة دعواهم القائمة على الظن والتخمين، والمجردة من الثبوت واليقين.

خامساً: أمران هاما يجب مراعاتهما في الإيمان بالقدر:

الأول: يجب اليقين باستحالة الإحاطة بسر القدر الإلهي إحاطة كاملة؛ لأن هذا من خصائص العلم الإلهي الخالصة، والله تعالى يطلع من شاء من عباده على ما شاء من أسرار خلقه وغيبه، وهذا الاطلاع مهما عظم وامتد فهو ضئيل جداً بجانب علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولقد كان موسى عليه السلام هو كليم الله، وعلمه الله تعالى ما شاء، ثم لقي الخضر وهو كما وصفه الله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: ٦٥].

(فلما ركبوا في السفينة جاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى ما نقص

زيادة الإيمان ونقصانه وقلته

ورد في كتاب الله تعالى آيات استنبط منها العلماء أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المحرمات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ يَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد، فإن ما تلوته عليهم، وسمعه منك زادهم الله بذلك إيماناً إلى إيمانهم، وبيئاً لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَيَزِدُّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. أي: أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾

[الأنفال: ٢].

وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]^(١).

لهذا لا يصح للمسلم أن يحتج في ارتكاب المعصية، يقول هذا كتبه الله علي، أو الله قدر علي ذلك، أو أنا مرغم على ذلك، كل هذا باطل؛ لأن الله سبحانه بين لنا الطريق، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضله علينا عظيماً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن القدر نؤمن به ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولاً، لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد؛ لم يعذب الله أحداً من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على جريمة، ولا جاهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهى عن منكر»^(٢).

(١) محاضرات في التفسير الموضوعي، عبدالستار السعيد ص ٦٥.

(٢) دقائق التفسير، ابن تيمية ٢ / ٣٦٨.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١ / ٢٠٥.

عمران: ١٧٣].

وفي الآية دليلٌ على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاً، قال: ابن عمر رضي الله عنهما قلنا: يا رسول الله: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: (نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار)^(٦). قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك»^(٧).

ومن أقوال العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه:

قيل لسفيان بن عيينة: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. في غير موضع، قيل: فينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلا وهو ينقص^(٨).

وقال ابن بطال رحمه الله: «مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص،.. ثم قال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص»^(٩).

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. أي صبراً على البلاء، وتسليماً للقضاء، وتصديقاً بتحقيق ما كان الله وعدهم ورسوله^(٢).

وفي الآية «دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص»^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين، وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

في هذه الآية: دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها، وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينميها، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه^(٥).

وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ [آل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ٣٥١.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٢١٠.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٥.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢ / ١١٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٢١٠.

(٨) أخرجه الآجري في الشريعة ص ١١٧.

(٩) شرح صحيح مسلم، النووي ١ / ١٤٦.

أثر الإيمان في النفوس

للإيمان تأثير بليغ في النفوس، فيحدث فيها تغيراً كبيراً.

وفي القرآن الكريم بعض النماذج التي تظهر تأثير النفس وتغييرها بعد الإيمان.

ومن تلك النماذج: سحرة فرعون.

فقد أخبرنا الله في القرآن الكريم عن قصة إيمان سحرة فرعون وأثر هذا الإيمان في ثباتهم واسترخاض أنفسهم في سبيل الله تعالى.

ويظهر هذا التأثير في النقاط الآتية:

أولاً: سحرة فرعون وتعلقهم بعطايا فرعون:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝١٣٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝١٣٤﴾

[الأعراف: ١١٣-١١٤]. أي أجمع لكم بين الأجر والمنزلة عندي والقرب مني، وسألوا استحقاق الأجر إدلال بخبرتهم وبالحاجة إليهم، إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غاليين، وخافوا أن يسخرهم فرعون بدون أجر فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده^(٤).

وهذا دأب المستبدين، تسخير العباد بمختلف طاقاتهم ومهاراتهم لحساب

وخلاصة القول: أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وتجدر الإشارة إلى أن نقصان الإيمان غير الإيمان القليل التي ذكره القرآن وصفاً

لليهود، قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَعَيْنَا لَيَّا بِلِسَانِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْبَانِهِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمَنْهُمْ اللَّهُ بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾ [النساء: ٤٦]. «أي: إلا

إيماناً قليلاً، وهو الإيمان ببعض الكتب دون بعض، وببعض الرسل دون بعض»^(١).

«قيل: أي: إلا إيماناً قليلاً لا يعاب به، وهو الإيمان ببعض الكتب والرسل، أو إلا زماناً قليلاً وهو زمان الاحتضار فإنهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان»^(٢).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه قولان:

أحدهما: فلا يؤمن منهم إلا قليل، وهم عبد الله بن سلام، ومن تبعه، قاله ابن عباس. والثاني: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، قاله قتادة، والزجاج. قال مقاتل: وهو اعتقادهم أن الله خلقهم ورزقهم»^(٣).

والمعنى يسع هذه الأقوال؛ لأنها من باب التفسير بالمثال.

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤٨.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٨٤.

(٣) زاد المسير ١/ ٤١٦.

(٤) تفسير التحرير والتنوير ١٩/ ١٢٦.

ثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة

جعل الله تعالى للإيمان ثمرات في الدنيا والآخرة؛ لتحفيز العباد على الثبات عليه، وتجديده باستمرار وزيادته بالطاعات، وسوف نتناول هذه الثمرات في المطالب الآتية:

أولاً: جزاء الإيمان في الدنيا:

١. الاستخلاف والتمكين في الأرض.

أخبر سبحانه وتعالى أنه وعد بالنصر للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

[النور: ٥٥].

عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا

ذواتهم، دون أن يعطوهم من الأجر ما يستحقونه.

ثانيًا: سحرة فرعون وتعلقهم بعظمة فرعون:

قال تعالى ﴿قَالُوا جَاءَنَا وَعِصْيَتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ثالثًا: أثر الإيمان في نفوسهم:

وعندما من الله عليهم بالإيمان واليقين قالوا: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَسَنِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسول إذا أشرفت عليهم أنوار الرسالة، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته»^(١).

وتعليقًا على هذا التحول العجيب: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء»^(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير ١٦ / ٢٦٦.

(٢) الدر المنثور، السيوطي ٣ / ٥١٣.

يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نكون آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد. وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة^(٢)، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح^(٣).

قال سيد قطب رحمه الله: «أن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة

والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان! وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض- كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم- ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض؛ إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها»^(٤).

«وإن الله تعالى إذا نبه عباده إلى أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فإن معنى ذلك الإصلاح أوسع من ركعات تؤدي، أو أيام تصام، إنه علم ربح الآفاق بكل شيء في مقدور البشر، وعدل محدود الرواق، لا يشقى معه ضعيف، ولا يقهر معه مظلوم،

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ١٥٩ رسلاً عن أبي العالية.

وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي ص ١٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٩.

والحكم بين الناس بما شرع الله، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية^(٣).

٣. البركات من السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

«أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب»^(٤). وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش. «والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون، في تأكيد ويقين، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهياً لهم في واقع ولا خيال.

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة، وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله سبحانه وكفى بالله شهيداً، ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها

وأمان ضد الجوع والقلق، وطوارق اليوم والغد، وكفالة لحرية العقل والضمير، تنمو فيها المواهب وتتضح الملكات، وتكمل الشخصية، وتسان المرافق العامة والخاصة»^(١).

٢. الخيرية بين البشرية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

يقول تعالى ذكره: إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، وعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى، يقول: من فعل ذلك من الناس فهم خير البرية^(٢)، حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال: إنه الإيمان، لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين، ولا بمجرد كلمات يتشدد بها الإنسان! إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة، وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاء! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل. وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض،

(١) انظر: سر تأخر العرب والمسلمين، محمد الغزالي ص ١٢٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤ / ٥٥٦.

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٩٥٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣ / ٢٥٣.

الناس^(١).

وهنا يثار تساؤل: لماذا نرى أممًا مسلمة مضيق عليهم في الرزق، ونرى أممًا لا يؤمنون موسعًا عليهم في الرزق والقوة والنفوذ؟

قال سيد قطب رحمه الله: إن أولئك الذين يقولون: إنهم مسلمون، لا مؤمنون ولا متقون، إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله، إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم، يتألهون عليهم، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذي يصرف حياته بشرعه وأمره، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقًا. دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض، وتحقق لهم وعد الله، فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق، فهذه هي السنة: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَتُنَا الضَّرُّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

فهو الابتلاء بالنعمة، وهو أخطر من الابتلاء بالشدة، وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه

الصلاح والأمن والرضى والارتياح، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة، مهددة في أمنها مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال.

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال^(٢).

٤. الحياة الطيبة.

أخبر سبحانه وتعالى أنه من عمل عملاً صالحاً ذكراً كان أم أنثى، وهو مؤمن بالله ورسوله، فلنحيينه في الدنيا حياة سعيدة مطمئنة، ولو كان قليل المال، ولنجزينهم في الآخرة ثوابهم بأحسن ما عملوا في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى،

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٩.

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٣٣٨.

بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة.. وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار»^(٣).

وفي الآية دليل على أن الجنسين: الذكر والأنثى متساويان في قاعدة العمل والجزاء، وفي صلتهم بالله، وفي جزائهم عند الله، وأن أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصصه الدين بأحد الصنفين.

٥. عدم الحرمان من ثواب العمل.
أخبر سبحانه وتعالى أنه يجازي أهل الإيمان والعمل الصالح بالأجر الجزيل غير المقطوع، وهذا الأجر يكون بأحسن ما عملوا، ويكون وافيًا تامًا.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوبٌ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

«هذا هو قانون العمل والجزاء، لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان، وهو مكتوب عند الله

من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة والانصراف بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله^(١).

فالعامل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٩٣.

(٣) مدارج السالكين: ٣ / ٢٤٣.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٥١٦.

لا يضيع منه شيء ولا يغيب»^(١).

ووعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح بالثواب غير المقطوع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

قال السدي: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون^(٢).

بل وعدهم سبحانه بتوفية أجورهم والزيادة من فضله، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

يعني جل ثناؤه بذلك: فأما المؤمنون المقرون بوحداية الله، الخاضعون له بالطاعة، المتذللون له بالعبودية، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك أن يردوا على ربهم، قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهم باجتنابه فيؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافيًا تامًا، ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم مبلغه ولم

يحد لهم متناه. وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشر أمثالها من الثواب والجزاء، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدود بمبلغه، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله على عباده، غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفيههم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة، هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حد لقدره يوقف عليه^(٣).

ويستفاد من الآية: أن أجر أهل الإيمان والعمل الصالح مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات، ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المآكل والمشارب، والمناكح، والمناظر والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

٦. الأمن من الخوف والحزن.

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، وأدوا الصلاة كما أمر الله ورسوله، وأخرجوا زكاة أموالهم، لهم ثواب عظيم

(١) في ظلال القرآن ٥ / ١٧٢.

(٢) المحرر الوجيز ٥ / ٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٧ / ٧١٠.

يخاف أن لا يجزى بعمله، ولا أن ينقص من حقه (٢).

٨. المحبة في قلوب العباد.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح (٣).

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض) (٤).

٩. الهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

خاص بهم عند ربهم ورازقهم، ولا يلحقهم خوف في آخرتهم، ولا حزن على ما فاتهم من حظوظ دنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وعد سبحانه - الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر.. ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتلأوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون (١).

من هدايات الآية: أنه سبحانه وتعالى خص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنهما عمل الصالحات تشريفاً لهما، وتنبهاً على قدرهما، إذ هما رأس الأعمال، الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

٧. الأمان من الظلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

لا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته، ولا أن يهضم من حسناته، ولا يخاف أن يظلم فيزاد من ذنب غيره، ولا يخاف أن يؤاخذ بما لم يعمل، ولا يتقص من عمله الصالح، ولا (١) التفسير القرآني للقرآن ٢ / ٣٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣ / ١٧٧.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥ / ٢٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عبادته، رقم ٢٦٣٧.

تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ [يونس:

٩]، أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم؛ ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾^(١).

١. صلاح البال.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ﴿٢﴾ [محمد:

٢].

يقول تعالى ذكره: والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، وصدقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد، محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه^(٢).

«وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر. والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة

والرضى والسلام، ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام»^(٣).

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح أصل صلاح بال المؤمن، فلا يفكر إلا صالحًا، ولا يتدبر إلا ناجحًا، ولا يعمل إلا نافعًا.

١١. النجاة من الخسران.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿٢﴾ [العصر: ٢-٣].

إن الإنسان لفي خسارة وهلاك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران: الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم وتواصوا بالحق: وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات وتواصوا بالصبر، أي: على المصائب والأقدار وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر^(٤).

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

«قد يكون خسرًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.

وقد يكون خسرًا من بعض الوجوه دون

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٨١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨ / ٤٥٧.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١ / ١٨٠.

وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران^(٢).

ويستفاد أيضًا: أن الأمة إذا قامت بالصفات الأربع-الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر-قادت العالم الإنساني إلى الخيرية التي أخرجت من أجل تحقيقها كما كانت في سابق عهدها؛ لأنه لما ضعف في الأمة تحقيق هذه الصفات الأربع أصبحت في ذيل الأمم وتحقق الخسار للعالم أجمع، وكثرت رايات الباطل ومن يحملها، وقلت رايات الحق ومن يحملها.

ونحن على موعد لإرهاصات عهد جديد للأمة ترفع فيه رايات الحق وينضوي تحتها المحبون له المناضلون من أجله؛ لإسعاد الخلق به، وقيادتهم إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح.

١٢. الإخراج من الظلمات إلى النور.

أخبر سبحانه وتعالى أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿اللَّهُ

بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالريح العظيم^(١).

ويستفاد من الآية: أن الإنسان لا ينفك عن نوع خسران، وتفسيره: «أن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضًا حاصل؛ لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنًا من أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائمًا، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٠.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٣٤.

وَالَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير^(١).

ويستفاد من الآية: أن الله يدفع عن المؤمنين كل مكروه بسبب إيمانهم، ويعينهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم.

١٣. مجازاة المؤمنين بأحسن ما كان يعملون.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. قيل: وإنما خص أحسن أعمالهم؛ لأن ما عداه وهو الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعة، وقيل: المعنى: ولنجزينهم بجزاء أشرف وأوفر من عملهم، كقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الجزاء الجزيل، لا أنا نعطي الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٤.

في مراتب الحسن بأن نجزي الحسن منها بالأجر الحسن، والأحسن بالأحسن^(٢).

ويستفاد من الآية: أن الله يجزي أهل الإيمان والعمل الصالح الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

١٤. الامتناع عن الظلم.

أثنى الله على أهل الإيمان والعمل الصالح بأنهم لا ينبغي بعضهم على بعض، بل ينتصفون من أنفسهم للحق، وهم قليل.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِفَةِ لَيَتَّبِعُهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. أي: وإن كثيرًا من الشركاء في المال ليتعدى بعضهم على بعض، ويظلمه غير مراعاة لحقه إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم يتحامون ذلك، ولا يظلمون خليطًا ولا غيره، وقليل هم^(٣).

ويستفاد من الآية: أن الإيمان والعمل الصالح يمنع صاحبه من الظلم.

ثانيًا: جزاء الإيمان في الآخرة:

أخبر سبحانه وتعالى أن لأهل الإيمان والعمل الصالح الثواب العظيم في الآخرة

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٣٠.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٤٨٩.

والذي منه:

١. تكفير السيئات وتبديلها حسنات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٧].

قال القرطبي رحمه الله: «أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم. ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام، ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام»^(١).

وقال تعالى في تبديل السيئات حسنات: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. في معنى قوله: يبدل الله سيئاتهم حسنات قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات، وقال عطاء بن أبي رباح: هذا في الدنيا، يكون الرجل على هيئة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣ / ٣٢٨.

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصري: «أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً»، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه، فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته^(٢).

وقد روى مسلم بسنده عن عبد الله قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، رجلٌ يخرج منها زحفاً فيقال له: انطلق فادخل الجنة - قال - فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه، فيقول: نعم. فيقال له تمن. فيتمنى: فيقال له: لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا - قال - فيقول أتسخر بي وأنت الملك؟! قال: فلقد رأيت

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ١١٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ^(١).

٢. المغفرة.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يثيبهم على ذلك الجنة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم، وبالجنة فهي الأجر العظيم ^(٢). ووعدهم سبحانه وتعالى بالرزق الحسن الذي لا ينقطع وهو الجنة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠].

٣. الجنة و نعيمها.

وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن لهم أعلى الجنة وأفضلها منزلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفي وصف الفردوس روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد

في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها) فقالوا: يا رسول الله: أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) ^(٣).

وقد بشر الله أهل الإيمان والعمل الصالح بالجنة وما فيها من أنواع النعيم، قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

«فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به، وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره، وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، نعيم القلب، وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم ٢٥٨١.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم ٤٨٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٦٦.

انقطاعه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَوُا بِرَبِّكُمْ مُتَسَبِّحِينَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء^(٢).

وأخبر سبحانه وتعالى أن من نعيم أهل الجنة: الأزواج المطهرة، وقد فسر مجاهد رحمه الله قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧].

قال: «طهورٌ من الحيض، والغائط، والبول، والبزاق، والنخامة، والمني، والولد»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء؛ بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام^(٤).

وقال سبحانه في موضع آخر: أنه سبحانه يدخل أهل الإيمان والعمل الصالح ظلًا كثيرًا ممتدًا في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

الظل الظليل: الكثيف الذي لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم ونحو ذلك، وقيل: هو مجموع ظل الأشجار والقصور، وقيل: الظل الظليل: هو الدائم الذي لا يزول^(٥).

وقد وصف النبي ظل الشجرة فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة)^(٦).

وأخبر سبحانه أنه عند دخول أهل الإيمان والعمل الصالح الجنة يُحْيَوْنَ بالسَّلام.

قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْيَتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

قوله: ﴿يُحْيَتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إلى الضمير، فجائز أن يكون الضمير للمفعول أي تحييتهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي يحيي بعضهم بعضًا^(٧). وأخبر سبحانه وتعالى عن زينة أهل الإيمان والعمل الصالح في الجنة، فقال:

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١ / ٥٥٤.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، رقم ٧٣١٤.

(٧) المحرر الوجيز ٣ / ٣٣٤.

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١٣٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ١١٤.

(٣) البعث والنشور، البيهقي ١ / ٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١ / ١١٤.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

« يحلون فيها من الحلية من أساور من ذهب ولؤلؤا أي: في أيديهم.

كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم بسنده عن أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى تبلغ، إبطه فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ، أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)»^(١).

وقال كعب الأحبار: إن في الجنة ملكا لو شئت أن أسميه لسميته: يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها- أي سوار منها- لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٢٣] في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠.

وَعَلَوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْزًا جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢]»^(٢).

وقد روى مسلم بسنده عن خليفة بن كعب أبي ذبيان قال سمعت عبد الله بن الزبير يخطب، يقول: ألا لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإنني سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)^(٣).

وأخبر سبحانه وتعالى أنه: أعد لأهل الإيمان والعمل الصالح غرف وصفها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

«أي: لنسكنهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا، ماكثين فيها أبدا لا ييغون عنها حولا، نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين الذين صبروا أي على دينهم. وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٣٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تشربوا في إناء الذهب والفضة ولا تلبسوا الديباغ والحرير، رقم ٣٨٥٠.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الشرك، القدر، الملائكة، النبوة

ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده، وتصديق موعوده^(١).

وأخبر سبحانه وتعالى أن أهل الإيمان والعمل الصالح، يكرمون ويسرون وينعمون في الجنة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الرؤم: ١٥].

الحبر، والحبور: السرور والغبطة، والرضوان.. والروضة: الجنة. أي أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا يحزنهم هذا اليوم، ولا يضرهم التفرق، إذ كان مع كل مؤمن عمله، الذي يؤنسه، ويذهب وحشته، ويملاً قلبه طمأنينة وأمنًا، بما يرى من بشرى الإيمان والأعمال الصالحة، التي بين يديه^(٢).

وذكر تعالى (الروضة)؛ لأنها من أحسن ما يعلم من بقاع الأرض، وهي حيث اكتمل الثبت الأخضر وجن، وما كان منها في المرتفع من الأرض كان أحسن^(٣).

والخلاصة: أن نعيم الجنة المعد لأهل الإيمان والعمل الصالح: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ٢٦٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ١١ / ٤٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٤ / ٣٣٢.

